الدرس البلاغي وإشكالية التحديث
قراءة في المصطلح والمنهج

أ.أرفيس بلخير

أستاذ مساعد –ب–

جامعة محمد بوضياف–المسيلة–

تمهيد

لقد أضحت دراسة التفكير البلاغي عند العرب بآليات ومقاربات منهجية معاصرة من اهتمامات الباحثين والمختصين خصوصا أولئك الذين أرادوا ربط التراث بأواصر التحديث.

ورغم اختلاف الغايات التي يصبوا إليها كل طرف؛ إلا أن أهم شيء ينبغي الإقرار به على الأقل هو أن المادة البلاغية المتوارثة تبقى الملاذ الوحيد لكل باحث طامح للتأصيل المنهجي أو النظري أو إحياء مقولات أو إعادة صياغتها في قوالب منهجية مصبوغة بروح العصر ومعطياته، وهو أمر غير معطى ،إذ هناك ضياع في المعاني كالضياع الحاصل في الفيزياء، حسب قانون كارنو، بقدر ما يبتعد المرء عن عصر المؤلف بقدر ما تضيع أفكاره ويصعب فهم أقواله على وجهها الكامل، لأن قولا صريحا يخفي أقوالا ضمنية بديهية، وهذه هي التي تضيع مع ذهاب الأجيال.

إن هذا الأمر يحتم علينا الإقرار بصعوبة التنقيب في أركيولوجيا الأفكار البلاغية، لما تحمله من معاني مصبوغة بزمان ومكان معينين، وأن أي عمل إجرائي يحتاج إلى رؤية واضحة يدعمها منهج قار ينير دربها ويقوم اعوجاجها حتى تصل إلى مبتغاها.

كما أن أكبر عقبة يواجهها الباحث؛ وملزم باجتيازها؛ هو تحديد المصطلح وضبط المنهج، إذ تعد هذه الأخيرة المرآة العاكسة للحقل موضوع الدراسة، وهو ما اتسمت به جل الدراسات المتعلقة بتحليل الخطاب وتفسيره، ؛ كما أنها الضامن الوحيد لتبيين هوية البحث ووضعه في الإطار العام الذي يسمح له بأن يكون ضمن نطاق أو آخر.

إشكالية المصطلح:

المصطلح في اللغة:"دلت المعاجم على أن الفعل اصطلح ومصدره وما يشتق منه يعني الاتفاق والتعارف على شيء ما من قبل طائفة من الناس"[1].

وفي الاصطلاح :رمز لغوي له دلالة محددة في حقل معين من حقول المعرفة،يتفق عليه مجموعة من العلماء في ذلك الحقل، ليصف أو يشير إلى ظاهرة من الظواهر، ولابد لهذا الرمز اللغوي الذي يستخدم بشكل اصطلاحي من وجود مناسبة تربط بين أصله اللغوي ووضعه الاصطلاحي كالعموم أو الخصوص، أو المشاركة في أمر أو المشابهة في وصف أو غير ذلك.[2]

لكن المتتبع لهذا التعريف سيقر بداية بعدم إمكانية إسقاطه على الدرس البلاغي عند العرب ،خاصة في مراحله الأولى، أو إن شئت قل قبل كتاب مفتاح العلوم للسكاكي تحديدا، وإن إقراره هذا نابع من المعطيات التالية:

– أن وجود دلالة محددة لاصطلاح معين لم يتم على الإطلاق، وذلك راجع ليس للفظ في حد ذاته،وإنما في الشحنة المعرفية التي يمكنه أن يحملها،خاصة إذا علمنا أن الدرس البلاغي قد تجاذبته العديد من الأطراف التي حاول كل واحد منها

---

[1]– شوقي ضيف وآخرون، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية،مكتبة الشروق الدولية،مصر، ط4،2004م مادة"صلح"، ص:550.

[2]– انظر: التهانوي: محمد بن علي، كشاف اصطلاحات الفنون ،دار الكتب العلمية ،بيروت، لبنان ط1(1418هـ–1998) ج:3،ص:23 .

أن يؤسس لنفسه موقعا خاصا يمكنه من احتلال رتبة ضمن العلوم الأخرى، ولا غرو في ذلك فإن المرحلة الأولى مرحلة انفجار العلوم.

– أن اتفاق العلماء على مصطلح ما لم يتأت هو الآخر، ذلك أن اختلاف العلماء قد أدى إلى تداول العديد من المصطلحات، وإن كان المصطلح واحدا فالمعنى متعدد، وسبب ذلك يرجع إلى المذاهب الفكرية والفروع العلمية التي ينتمي إليها كل واحد منهم، أضف إلى هذا، ندرة التقاء العلماء أنفسهم أو عدمه، والذي أثر سلبا في إيجاد حوار بلاغي يمكن من الاتفاق على المفاهيم ووضعها في قوالب جاهزة يمكن من استعمالها بصورة آلية لحظة الطلب.

أن وجود علاقة تربط المصطلح بأصله اللغوي لم يكن بالأمر العسير لأن جل العلماء قد اختاروا المصطلحات التي تتوافق وطموحاتهم الفكرية، فلفظ المجاز الذي استعمله أبو عبيدة في كتابه مجاز القرآن لم يكن ليعني المجاز الذي استقرت عليه الدراسات البلاغية فيما بعد ،و إنما كان يعني وجها من وجوه التفسير الذي كان مرتبطا بالقرآن الكريم.

إن إشكالية المصطلح تتأتى من الغاية التي رسم لأجلها، إذ إن أي قلق فكري يروم الوصول إلى حقيقة ما، ما يفتأ يطرح العديد من التساؤلات ،ويثير الكثير من الإشكاليات، ثم ما يلبث أن يختار العديد من المصطلحات

ويحاول إخضاعها بصورة منهجية لتستجيب لمتطلبات البحث.

ومن هنا، فإن هذا الطرح يجعلنا نثير العديد من الأسئلة حول الظروف التي لابست نشأة التفكير البلاغي عند العرب، فهل كان البحث في بادئ الأمر عن علم البلاغة وعن مشروعية بناء أسس له؟ أم إن موجات تفكير في ميادين أخرى هي التي عرفت معها علما أصبح يسمى فيما بعد بالبلاغة؟

إن العرب قد عرفوا بالبلاغة وخصوا بالفصاحة، وكانت هذه المزية مجال الافتخار وموطن الشرف والاعتزاز، غير أن إمكانية وجود رؤية واضحة حول طبيعة

ذلك السر الجمالي الذي حذقوه ،لم يكن ليعلم بحكم وجود غريزة لغوية، وحس مرهف يمكن تحديد الحسن من الرديء ،أضف إلى هذا غياب النموذج الذي منه وعلى أساسه يمكن تصنيف كلامهم ،وإلباسه لباس الحسن والقبح.

ولهذا، فإن وقوف العرب عاجزين عن محاكاة النموذج الأعلى "القرآن" قد أثر عليهم من ناحيتين:

-إن عدم إمكانية تقليده ولو بآية جعلهم يشعرون بالنقص، بل وأكثر من ذلك فقد حارت قواهم وجفت قرائحهم ليتهموا النبي في الأخير بأنه ساحر، ويظهر ذلك في قوله تعالى ﴿**إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ**﴾[1] والملاحظ للتهمة هذه يجدها خارجة عن الخطاب القرآني في حد ذاته، بمعنى وجود قوة خارجة عن ذات القرآن، حتى يعطوا لأنفسهم الذرائع ويقيموا على الآخرين الحجج.

-إن إيمان العرب فيما بعد بالقرآن قد جعلهم يثيرون العديد من الأسئلة حول حقيقة السر الذي منعهم من محاكاة القرآن في مرحلة ما قبل الإيمان، ولهذا وجد أعمق سؤال أدرك على أعظم كتاب أنزل وهو"إذا كان هذا القرآن معجزا ،فأين مكمن هذا الإعجاز؟. ولذلك فإن دوران رحى البحث حول إعجاز القرآن الكريم قد أفرز العديد من الدراسات التي رام كل جانب منها أن يؤدي دوره ليثبت منه إعجازه؛ وبتعبير آخر، فإن القرآن الكريم كان بمثابة المركز وكل الدراسات حامت حوله بصفتها أطرافا خاضعة له وتابعة إليه.

من هذا المنطلق ،ندرك أن الدرس البلاغي لم يكن غاية في حد ذاته، وإنما كان وسيلة تهدف إلى غاية أسمى منه وهو إثبات إعجاز القرآن الكريم، لكننا في المقابل نقر بأن رحلة الدرس البلاغي قد عرفت طريقها الصحيح باحتكاكها بالنموذج الأعلى"القرآن" ويمكننا توضيح ذلك وفق الآتي:

---

[1]- المدثر :18-24.

- العرب وبلاغتهم في ظل غياب النموذج الأعلى.
- القرآن الكريم النموذج الأعلى .
- رحلة البحث عن مقومات هذا النموذج وأسسه.
- علم اللغة: علم القراءات الإعراب التصريف

انطلاقا مما سبق ذكره ،يتبين لنا أن الدرس البلاغي لم يكن مقصودا في حد ذاته، وإنما كان لغاية عظمى وهي محاولته البحث عن مواطن الإعجاز من خلال أساليب العرب ،وطرائق تعبيرهم في فنون القول المختلفة، وما يؤكد هذا الطرح أن أول كتاب عنون بما يتصل بالبلاغة"مجاز القرآن"لأبي عبيدة كان سبب تأليفه هو البحث في هذا المضمار، إذ تروي لنا كتب التراجم عن سبب تأليف أبي عبيدة لهذا الكتاب أنه كان يوما في مجلس الفضل بن الربيع فسأله إبراهيم بن إسماعيل أحد كتاب الفضل عن قوله تعالى في شجرة الزقوم ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينْ﴾[1] وكيف يشبه الله سبحانه وتعالى طلع هذه الشجرة برؤوس الشياطين على سبيل التخويف والوعيد، والعادة في التخويف والوعيد أن يكون بما هو مألوف للناس ومعروف لديهم، والعرب لم يروا الشيطان حتى يخيفهم بتشبيه طلع شجرة الزقوم برؤوسها، فأجابه أبو عبيدة بأن الله سبحانه وتعالى إنما خاطب العرب على قدر كلامهم، فامرؤ القيس يقول في توعد خصمه:

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

والعرب لم يروا الغول قط، ولكن لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به، وقد استحسن الفضل هذا الجواب واستحسنه السائل، ومنذ ذلك الحين عزم أبو عبيدة على وضع كتاب عن مثل هذه الأساليب في القرآن الكريم، ولما عاد إلى البصرة وضع كتاب "مجاز القرآن"[2].

---

[1]- الصافات: 65

[2]- ينظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، دار المأمون ، القاهرة، مصر، ج:19، ص: 158.

ويؤيد هذا الطرح أيضا قول أبي هلال العسكري "إن أحق العلوم بالتعلم وأولاها بالتحفظ، بعد المعرفة بالله جل ثناؤه، علم البلاغة ومعرفة الفصاحة الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى، الناطق بالحق، الهادي إلى سبيل الرشاد، المدلول به على صدق الرسالة، وصحة النبوة؛ التي رفعت أعلام الحق، وأقامت منار الدين؛ وأزالت شبه الكفار ببراهينها، وهتكت حجب الشك بيقينها" [1] كما أن إمام البلاغة عبد القاهر الجرجاني قد عنون كتابه الذي خصصه لعلم المعاني ب"دلائل الإعجاز" وبسط فيه أهم نظرية في الدرس البلاغي، ثم أعاد تطبيقها في كتابه "أسرار البلاغة". أما صاحب الكشاف فقد أولى عناية بالغة لعلمي المعاني والبيان ،ولهذا افتتح كتابه بالحديث عنهما واعتبرهما "علمين مختصين بالقرآن"[2] كما اعتمدهما كأساس لتفسير القرآن الكريم ،ولا غرو فهو يعتبر "البيان" مرادفا "للكشف"[3].

إن هذا الإقرار يجعلنا أمام العديد من المشاكل المنهجية؛ وهو محاولة رصد أهم الأسس التي بني عليها التفكير البلاغي عند العرب، وهذا راجع بصورة أساسية إلى انعدام الغائية ؛ إذ كيف يمكن أن نحدد معالم علم لم يكن يتصور في مرحلة ما أنه مقصود لذاته، فكلمة "المجاز "التي عنون بها كتاب أبي عبيدة تختلف كثيرا عما استقر عليه علماء البلاغة فيما بعد، أضف إلى هذا فإن هذا الكتاب يعد شراكة بين التفسير وعلوم البلاغة واللغة.

ومن هنا، فإن لملمة الشتات البلاغي تكمن صعوبتها ليس في عملية جمع المصطلحات وتحديد دلالتها عند كل عالم، وإنما في المعيار الذي على أساسه يتم تجميع تلك المادة البلاغية من جهة، ثم محاولة تصنيفها وفق منهج قادر على رصد الظاهرة البلاغية بجميع أشكالها وعلى كل مستوياتها لتستجيب لروح العصر من جهة أخرى.

---

[1]- العسكري :أبو هلال، الصناعتين ،تحقيق مفيد قمحة، دار الكتب العلمية، بيروت ،لبنان ط2 (1409هـ-1989م)، ص:9

[2]- الزمخشري :محمود بن عمر، الكشاف، مطبعة الحلبي،القاهرة،ج:1، ص:13 .

[3]- نفسه ص:95.

يعد علم البلاغة من أعتى العلوم وأصعبها وفي هذا يقول حازم القرطاجني "وكيف يظن إنسان أن صناعة البلاغة يتأتى تحصيلها في الزمن القريب، وهي البحر الذي لم يصل أحد إلى نهايته مع استنفاد الأعمار"[1].

وتكمن صعوبته باعتباره علما كليا كما سماه صاحب المنهاج لكونه يقتضي الإحاطة بعلوم اللسان وعلوم الإنسان المختلفة المتدخلة في تكوين الذات المنتجة للخطاب.

إن هذا التصور يجعلنا نغوص في عمق الظاهرة البلاغية معتمدين في ذلك على كل المقاربات التي حاولت ضبطها سواء أكان ذلك في موروثنا العربي أم في الدرس اللغوي الحديث.

وما يجعل إلحاحنا مستمرا للكشف عن أصولها وامتداداتها، هو تلك النظريات التي يدعي أصحابها أنهم الوارثون الشرعيون لهذا العلم، فعلى سبيل المثال يرى تودوروف أن الأسلوبية هي الوريث الشرعي للبلاغة، كما يرى رائد علم النص فان دايك "أن علم النص هو الوريث العصري للبلاغة"[2].

ولعل سبب هذا الاندفاع القوي نحو البلاغة كما يرى هنريش بليث هو "الأهمية المتزايدة للسانيات التداولية ونظريات التواصل والسيميائيات والنقد الإيديولوجي ،وكذا الشعرية اللسانية في مجال وصف الخصائص الإقناعية للنصوص وتقويمها، ونتيجة لهذه الأهمية ،يجب أن نسجل أولا، أن البلاغة قد صارت علما ،وأننا نهدف من جهة إلى إقامة نظرية بلاغية، وأن البلاغة من جهة ثانية، ليست محصورة في البعد الجمالي بشكل صارم، بل إنها لتنزع لأن تصل علما واسعا للمجتمع. إن رواد هذه البلاغة الجديدة في فرنسا هم رولان بارت، جيرار جينيت،

---

1 – القرطاجني حازم، منهاج البلغاء: ،تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت،لبنان، ص:88.

2 – فان دايك، النص بنياته ووظائفه :المقدمة، ضمن كتاب العلاماتية وعلم النص، منذر عياشي: المركز الثقافي العربي،المغرب ط1: 2004م .

وكونتير وكبدي فاركا ومجموعة مي لييج وبيرلمان وتودوروف، لقد استطاع هؤلاء الباحثون، وباحثون آخرون كثيرون ،في بلاد أخرى،أن يجعلوا من البلاغة مبحثا علميا عصريا"[1]، اعتمادا على هذا القول، وبالرجوع إلى اعتبار القرطاجني البلاغة علميا كليا نجد أنفسنا أمام الكثير من المتاهات الفكرية وهي:

- أن الكثير من الدارسين للتراث البلاغي بأعين الحداثة قد اهتموا بإفرازات الدرس اللغوي الحديث محاولين الاستفادة منه ثم محاولة إرجاعه إلى ما يتوافق والدرس البلاغي القديم، ويتضح هذا الكلام أكثر ويجد ما يبرره، في تلك الكتب التي حاولت أن تربط التفكير البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني بكل النظريات الحديثة ومثال ذلك كتاب محمد عبد المطلب أصول الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني.

- أن العديد من الدراسات تؤسس لموضوعها بأفكار فطاحلة البلاغة العربية، فالتداولية ونظريات التواصل والأسلوبية وعلم النص وعلم الأصوات وغيرها تأخذ الشيء الذي يتناسب مع رؤيتها وتعتبره مرجعا لها.

من هذا المنطلق نجد أنفسنا مضطرين للعمل جاهدين من أجل لملمة هذا الشتات، خاصة إذا علمنا تلك الرؤية الكلية التي استفادت منها البلاغة في شقيها العربي والغربي، ولهذا فإن الرجوع إلى حد البلاغة في ذاته هو الكفيل الوحيد باختيار منهج على أساسه نقوم بإعادة بعث الدرس البلاغي وإصباغه الصبغة التي تتوافق وطبيعة المرحلة.

إشكالية المنهج:

تبرز إشكالية المنهج في مدى إمكانية إعطاء مفهوم نسقي عام للبلاغة يستوعب جميع عناصر الظاهرة البلاغية، ويمكن من صهرها في نموذج قادر على استيعاب جميع أجزائها، ولا يتأتى له هذا إلا برصد ملامحها في الفكرين العربي والغربي، ففي الفكر العربي:

1- هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية، ترجمة محمد العمري، أفريقيا الشرق ،المغرب ،1999،ص:22.

البلاغة في اللغة تعني الوصول والانتهاء، يقال بلغ الشيء يبلغ بلوغا وبلاغا وصل وانتهى ومنه قول ابن أبي الأسلت السلمي:

قالت ولم تقصد لقيل الخنى مهلا فقد أبلغت أسماعي

ويقال رجل بليغ وبَلغ وبَلغ حسن الكلام فصيحه، يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه[1].

والبلاغة حسن البيان وقوة التأثير[2]، وأما في اصطلاح أهل الفن فهي مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته[3]

كما أورد الجاحظ العديد من تعاريف البلاغة عن الأقوام الآخرين وحاول أن يبني تصورا خاصا به.

قيل للفارسي: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل، قيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام واختيار الكلام، قيل للهندي: ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة[4].

وقد أدى به الأمر في نهاية المطاف إلى ربط البلاغة بالخطابة، والدليل على ذلك أنه أثناء حديثه عن تعاريف البلاغة ذكر قول سهيل بن هارون: لو أن رجلين خطبا أو تحدثا[5].

ويذكر في موطن آخر: أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح[6].

---

[1]- ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عبدالله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، مصر، مادة بلغ، ج :5،ص :346.

[2]- شوقي ضيف وآخرون، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ،مكتبة الشروق الدولية، ط4 (1425هـ-2004م) ص:70.

[3]- القزويني الخطيب، الإيضاح، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ط1 (1424هـ- 2003م) ص:20.

[4]- الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ،مصر ط7(1418هـ-1998م) ج:1، ص:88 .

[5]- نفسه، ج:1،ص:89.

[6]- نفسه، ج:1، ص. 92.

ومما يؤيد ما ذهبنا إليه أن الجاحظ يتحدث بمجرد فراغه من الكلام عن البلاغة وحدها يضع أقوالا يتكلم فيها عن الخطباء.

ولعل هذا الاختزال هو ما عابه عنه ابن وهب حين انتقده في تقزيم موضوع البيان من حصره في البلاغة وحصره بعد ذلك في الخطابة.

أما علم البلاغة فلم يظهر إلا في القرن السادس، وكبديل لذلك فقد ظهرت مصطلحات أخرى كان أولها البديع لابن المعتز الذي يقول فيه"وما جمع فنون البديع ولا سبقني إليه أحد وألفته سنة أربع وسبعين ومائتين"[1]وكان عمله هذا بمثابة إضافة علم جديد ليأخذ مكانا له بين العلوم الأخرى التي ظهرت في ذلك الوقت. وقد حاول بصنيعه هذا أن يضع يده على كل صنوف القول مستفيدا من الخصومات التي ظهرت بين القدماء والمحدثين، إلا أنه لم يلبث أن زحزح عن مكانه في مرحلة بعدية ليصبح جزءا تابعا لأجزاء أخرى من البلاغة في مقدمتها علم البيان.

تأتي كلمة البيان في أول استعمال لها مع الجاحظ في كتابه البيان والتبيين وكان اهتمام الجاحظ منصبا على قضية الفهم والإفهام "فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان"[2]، هذه القضية التي تتسع لتشمل جميع صنوف التواصل بغض النظر عن العلامات المستخدمة، وهنا نجد أنفسنا أمام علم العلامات وهنا يقول الجاحظ "البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير"[3]، وفي بعض الأحيان يضيق هذا المفهوم ليقتصر على العلامة اللسانية ؛ ويزداد ضيقا كلما توجه إلى العمل الأدبي، وهنا يتجاوز الكلام العادي الذي يكون فيه البعد الفني في درجة الصفر إلى الكلام الأدبي.

---

[1]- ابن المعتز، البديع، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ،القاهرة، ص:58.

[2]- الجاحظ: البيان والتبيين. ج:1ص:76.

[3]- نفسه ص:76.

إن نظرية البيان عند الجاحظ قد استوعبت جميع أطراف العملية التواصلية من أجل إنجاح وظيفة الخطاب، فركزت على المتكلم والسامع والكلام، وهي بهذا الطرح تقترب كثيرا من نظرية التواصل" Théorie de communication " عند جاكبسون.

وقد كان بناؤه لها على هذا الأساس، من أجل مواجهة وضعية تاريخية محددة، وهي وضعية جيل من الشعراء والكتاب أو من الخطباء والمثقفين الذين أصيبوا بلكنة في لغتهم، أو ألسنتهم، إما لأنهم في الأصل غير عرب؛ أو لأنهم عرب لكن اختلاطهم بغير العرب قد أثر في عربيتهم ،وأصابهم بلكنة في نطقهم، ولذلك فهي بيانية تهدف إلى ترسيخ مبادئ الفصاحة اللغوية في وعي هذا الجيل"[1].

أضف إلى هذا؛ فإن بيانية الجاحظ كانت خطابية، أي أنها كانت تسعى إلى تأسيس ما يجب أن تكون عليه الخطبة، وهنا نجدها تقترب بفن الخطاب عند أرسطو Rhétorique.هذه الأخيرة التي استحوذت على كل عناصر الدرس البلاغي وذلك لترجمة البلاغة بها وهذه القضية فيها نظر.

كما يمكننا أن نطرح في هذا المقام كلا من النظم والمجاز فالأول ظهر في كتاب الجاحظ "نظم القرآن "وأما الثاني ففي كتاب أبي عبيدة "مجاز القرآن "،ولأن الأول لم يصلنا والثاني يمثل عنصرا من البلاغة لا البلاغة كلها لم يكن من داع لتخصيص كلام ذي شأن فيهما وإنما الإشارة إليهما فقط.

أما مصطلح البلاغة فقد ظهر أول مرة مع عبد القاهر الجرجاني في كتابه أسرار البلاغة والذي حاول فيه أن يبحث عن أسس بلاغة الكلام ،كما حاول أن يجد تحديدا للمصطلحات التي لا تزال في عصره فضفاضة في معانيها غير دالة عليها وفي هذا يقول" ولم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى "الفصاحة"، و"البلاغة"، و"البيان"، و"البراعة" وفي بيان المغزى من هذه العبارات، وتفسير المراد

---

[1] – عبد الواسع أحمد الحميري ،شعرية الخطاب، المؤسسة الجامعية للدراسات ،بيروت، لبنان،ط1، 2005م، ص: 127 .

منها فأجد بعض ذلك كالرمز والإيماء ،والإشارة في خفاء وبعضه كالتنبيه على مكان الخبيء ليطلب،... ووجدت المعول على أن هنا نظما وترتيبا، وتأليفا وتركيبا ،وصياغة وتصويرا، ونسجا وتحبيرا "[1].

والملاحظ أن هذه الألفاظ مردها جميعا إلى "وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها ،فيما كانت له دلالة، ثم شرحها في صورة هي أبهى وأزين وأنق وأعجب وأحق بأن تستولي على هوى النفس، وتنال الحظ الأوفر من ميل القلوب، وأولى بأن تطلق لسان الحامد، وتطيل رغم الحاسد، ولا جهة لاستعمال هذه الخصال غير أن تأتي المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته ،وتختار له اللفظ الذي هو أخص به، وأكشف عنه وأتم له وأحرى أن يكسبه نبلا ويظهر فيه مزية"[2].

ينطوي كلام عبد القاهر على العديد من القضايا ويثير الكثير من الإشكاليات ،فحسن الدلالة وتمامها يذهب بنا إلى البعد التداولي، أما شرحها في صورة هي أبهى وأزين فيعود بنا إلى طبيعة الصورة وجماليات التصوير، أما استيلاؤها على النفس فينطوي على الآثار التي يمكنها أن تحدثها في المتلقي، أما أن تأتي بالمعنى من الجهة التي هي أصلح لتأديته وتختار اللفظ الذي هو أخص به فهنا يظهر قضية صحة اللفظ وشرف المعنى.

إن هذه المكونات هي التي تشارك جميعا في بناء الخطاب وتزداد قيمة هذا الأخير كلما تضافرت هذه العناصر جميعا في تأدية المعنى أثناء عملية التواصل.

إن هذا الأمر قد أدى بعبد لقاهر إلى بناء نظرية تكون شاملة لعلم البلاغة وهذا ما أدى إلى العديد من الدارسين إلى تبني هذه النظرية واعتبارها أساسا للعديد من مجالات الدرس اللغوي الحديث.

---

[1]- الجرجاني عبد القاهر ،دلائل الإعجاز،، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 5، 2004م، ص:34.

[2]- نفسه ص :43.

ولو حاولنا أن نبين الفرق بين بيانية الجاحظ ونظم الجرجاني لوجدنا الأخيرة تحوي الأولى "فدلالة البيان عند الجاحظ تعد دلالة باللسان ،أو بالنطق ،أي بالكلمة المنطوقة أو المسموعة لا بالكلمة المكتوبة أو المقروءة ،في حين دلالة النظم عند عبد القاهر تعد دلالة كتابية-أي بالكلمة مكتوبة أو مقروءة في الأصل، يدل على هذا أن الجاحظ ينطلق في كتابه البيان والتبيين منذ السطور الأولى أيضا في ذم "السلاطة والهذر" و "العي والحصر" و"الحبسة "و"عقدة اللسان" على نحو يؤكد أنه كان يربط بين البيان وسلامة اللسان ،والقدرة على الإفهام"[1]ولاغرو أن نجد الجاحظ يؤسس لعيوب اللسان وبلاغة الكلام في حين يؤسس عبد القاهر لبلاغة الصمت، ولو حاولنا أن نقف عند حدود الطرفين لوجدنا الجاحظ يحكم الدواعي الكلامية قد أخذ يؤسس لبلاغة الإقناع التي تتوافق وتأكيد وجهات النظر وفق المقامات الكلامية: في حين يؤسس عبد القاهر إلى بلاغة الإعجاز والإقناع الدائم الذي يتجاوز حدود المقامات وأفكار المتلقين، وذلك لارتباطه بمعجزة الإنسانية جمعاء.

في الفكر الغربي:

أصل الكلمة يوناني Rhétorica وتعني مجموع التقنيات التي تسمح بالتعبير الصحيح مع فصاحته ،وقد نشأت البلاغة في البيئة الديمقراطية اليونانية في العصور القديمة، تم اختراعها من قبل سيسيليا كوركس وتيزياس ،ثم قام بتطويرها السوفسطائيون وخاصة قرجياس، أما أفلاطون وأرسطو فقد أعطياها قاعدة فلسفية بتأسيسها على المعارف والإدراك ،كما نشأت البلاغة اللاتينية إلى جانب البلاغة اليونانية مع شيشرون، وبعد غياب البعد السياسي أصبحت البلاغة غاية في حد ذاتها.

ويمكن تمييز خمسة أشياء في نظرية الفن الخطابي:1-الإبداع والابتكار: ويشمل الأفكار والحجج التي يمكن تقديمها في الأماكن العامة. 2-العرض: وهو الذي يعلم

---

[1]- الجابري، بنية العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية،مصر،ط6،2000، ص:22.

إنشاء الخطط.3-الخطاب: ويختص بالأسلوب.4-الذاكرة. 5-الفعل: ويشمل وضعيات المتكلم وحركاته[1] كما يورد جون مازاليغا وجورج موليني ثلاثة معاني للبلاغة وهي:

- البلاغة فن قديم يهتم بفن الإقناع في مكوناته وتقنياته واستنباط الحجج ومعالجتها وبثها ومن هذه الزاوية نجد البلاغة اليوم في ارتباط بالتداولية.
- البلاغة مجموعة من صور التعبير منفصلة عن نوع الخطاب الذي استعملت فيه.
- تعني الكلمة أحيانا المقاييس المعيارية لفن الكتابة.

غير أن المفهوم الثالث لا أهمية له في تحديد ماهية البلاغة وإن كان قد شارك في الوظائف التعليمية، ومن هنا ،يبقى للبلاغة بعدان في التفكير الغربي:

-البعد الحجاجي الإقناعي الذي يصب في التداولية الحديثة،

-والمعنى التعبيري الشعري الذي يصب في الأسلوبية .

والملاحظ أن البعد الأول ذو الطبيعة التداولية متصل بنشأة البلاغة في الغرب، فالخطابة التي صاغ أرسطو أدبياتها جديرة بأن تفسر من ثلاث زوايا وفق ما اقترحه روبول[2]: الزاوية الحجاجية القضائية، الزاوية الأدبية، الزاوية الفلسفية إن انفجار المناهج بعد الحرب العالمية الثانية كان له بالغ الأثر في الدرس البلاغي، إذ حاول استثمار الموروث القديم مع المعطى الحداثي الوافد الجديد من أجل صياغة بلاغة عامة أو معممة ذات طابع سيميائي في اتجاه الخطاب.

ولهذا فلاغرو أن نجد تودوروف يرى أن الأسلوبية هي الوريث الشرعي للبلاغة الغربية، ويصرح بيرلمان ومن معه بأن الوجهة الصحيحة لحجاج فعال وناجح

---

[1] Dictionnaire de rhétorique: Michel Pougeoise.Armand colin. Paris. 2004 . p203.

-La rhétorique: Olivier Reboul .Que sais-je. Puf.Paris. 1984

في البيئة الديمقراطية الحديثة هي وجهة بلاغة أرسطو[1]، كما يصرح رائد علم النص فان دايك أن علم النص هو المثل العصري للبلاغة[2].

ومن هنا: فإن الدرس البلاغي الحديث قد تجاذبته العديد من المناهج منها على وجه الخصوص:

التوجه الحجاجي المنطقي أو الفلسفي، التوجه الأسلوبي الأدبي أو الشعري والتوجه الخطابي السيميائي أو النصي، غير أن من أهم هذه المناهج وأحدثها في البحث البلاغي هو التوجه ذو الطبيعة النصية لما يشتمل عليه من وشائج فكرية وأطر معرفية يمكن الاستفادة منها في إعادة بعث الدرس البلاغي ليستجيب لروح العصر وهو ما حتم علينا التطرق إليه والاستفادة منه.

المنهج النصي ومحاولة بعث الدرس البلاغي

إذا كان رائد علم النص فان ديك يرى أن علم النص هو الممثل العصري للبلاغة ،فإنه من الواجب أن نتحسس الأطر المعرفية والأسس الفنية التي بني عليها هذا العلم حتى يستحوذ على عناصر الدرس البلاغي، خصوصا في ابتعاده عن المعيارية التي تركت آثارا بالغة حالت دون التمكن من القفزة النوعية لهذا العلم .

ويتبادر للوهلة الأولى أن موضوع هذا العلم هو النص .مهما اختلفت أنواعه وتعددت، وإن كان هذا التنوع قد يفرض في مرحلة ما منهجا خاصا تفرضه طبيعة الرؤيا التي يتم من خلالها النظر إلى النص ؛ ثم في وجهات النظر إليه وتحليله، وكيفية توظيفه و ستخلاص النتائج منه، ولهذا نجد للبلاغة العربية- في سعيها إلى الرقي بالخطاب من التعبير إلى التأثير- بعض منطلقات المعالجة النصية مثل الإيجاز والفصل والوصل والتقديم والتأخير والحذف، بل إن نظرية النظم في محاولاتها تبيين إعجاز القرآن قد أكدت على مفهوم النظام والاتساق بين الوحدات المكملة له ،كما نجد

---

[1] -L'empire rhétorique: Perelman. Librairie philosophique j.vrin.Paris.1977 p14.

[2] - فان دايك، النص بنياته ووظائفه ،المقدمة.

إسهام المفسرين للقرآن الكريم في كشف التماسك الدلالي للنص من خلال المناسبة بين الآيات والسور مثلا.

أما القفزة النوعية التي أحدثها الدرس اللغوي الحديث فكانت بانتقاله من نحو الجملة إلى نحو النص كرد فعل على الفجوات التي خلفتها الدراسات اللسانية بوقوفها عند المستويات الثلاث لدراسة الجملة(الصوتية، المعجمية، النحوية). ولم يكن هذا الانتقال توسعا كميا بقدر ما كان اتساعا نوعيا في محاولته اجتلاب عناصر فوق جملية تمكن من تحقيق مجموعة الوظائف .

يعد هاريس أول من تكلم عن تحليل الخطاب في الوقت الذي كان أعظم اهتمام لعلم اللغة بالجملة المفردة، وبهذا يكون أول من قرع طبول النص واعتبر الخطاب موضوعا شرعيا للدرس اللساني، محاولا تدارك النقص الذي ساد في نحو الجملة فانتقده من جهتين.

1- اعتماده في عملية الوصف والتحليل على الجمل والعلاقات بين وحدات الجملة الواحدة؛ فوسع دائرة الوصف إلى ما هو خارج الجملة معتمدا في ذلك على الخطاب.

2- تحامله على قضية الفصل بين اللغة والموقف الاجتماعي وهو ما يحول آليا على سوء الفهم إن لم نقل عدمه؛ ومن هنا فقد اعتمد أمرين:

- تجاوز الجملة إلى النص
- الربط بين اللغة والموقف الثقافي وفي هذا يقول " يمكن أن تتصور تحليل الخطاب انطلاقا من ضربين من المسائل هما في الحقيقة أمران مترابطان، أما الأول فيتمثل في مواصلة الدراسة اللسانية الوصفية بتجاوز حدود الجملة الواحدة في الوقت نفسه، وأما الثاني فيتعلق بين الثقافة واللغة"[1].

---

[1] محمد الشاوش، [illegible] تحليل الخطاب، [illegible] العربية للنشر والتوزيع، تونس، ط1 2001، [illegible]، ص [illegible]9

ومن هذين المنطلقين فقد فتح هاريس الباب على مصراعيه لدراسة الظاهرة اللغوية في أبعادها النفسية والاجتماعية والفنية والإعلامية من جهة، والتأكيد على النص وحدة دلالية تساهم الجمل في بناء هذه الوحدة، ولعل لهذه الفكرة ما يسندها فسوسير يعتبر "محاولة تحديدها من هذه الوجهة فيه كثير من الإجحاف لما سيترتب عنه من عزل لها عن النظام الذي تنتمي إليه، لأنه لا يمكننا بأية حال من الأحوال الانطلاق من الكلمات للوصول إلى النظام بل على العكس من ذلك، يتوجب علينا النظر إلى النظام ككل متكامل، ومنه نستطيع الوصول من خلال التحليل إلى العناصر المكونة له"[1]، ومن هذا اكتسب علم النص شرعيته من خلال طرحه للجانبين الدلالي والمقامي، وفي هذا يقول سعد مصلوح "إن الفهم الحق للظاهرة اللسانية يوجب دراسة اللغة دراسة نصية وليس الاجتراء والبحث عن نماذجها وتهميش دراسة المعنى، كما ظهر في اللسانيات اليلومفيلدية أول أمرها، ومن ثم كان التمرد على نحو الجملة والاتجاه إلى نحو النص أمرا متوقعا واتجاها أكثر اتساقا مع الطبيعة العلمية للدرس اللساني الحديث"[2]، ويفسر رائد علم النص فان ديك هذا الأمر بقوله "ففي كل الأنحاء السابقة على نحو النص وصف للأبنية اللغوية ،ولكنه لم يعن بالجوانب الدلالية عناية كافية، مما جعل علماء النص يرون أن البحث الشكلي للأبنية اللغوية ما يزال مقتصرا على وصف الجملة ؛بينما يتضح من يوم إلى آخر جوانب كثيرة لهذه الأبنية وبخاصة الجوانب الدلالية ولا يمكن أن يوصف إلا في إطار واسع لنحو الخطاب أو نحو النص"[3].

---

[1]- دي سوسير، محاضرات في اللسانيات العامة، ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط1، 1987م، ص:151.

[2]- سعد مصلوح، العربية من نحو الجملة إلى نحو النص، عن جميل عبد المجيد: البديع بين اللغة و اللسانيات النصية ،الهيئة المصرية العامة للكتاب 1998ص: 67.

[3]- فان ديك، النص بنياته ووظائفه، ص:136.

وباعتماد الجانبين الدلالي والمقامي برزت الوظيفة الاجتماعية إلى السطح: فأصبح محور اللسانيات النصية هو البحث عن الطرق الكفيلة التي تكفل للنصوص تأدية وظيفتها المرتبطة أساسا بتحقيق التفاعل الإنساني. ولا يتأتى هذا إلا من خلال تحليل البنى النصية واستكشاف العلاقات النسقية المفضية إلى انسجام النصوص والكشف على أغراضها وفي هذا الصدد يري صبحي إبراهيم الفقي "إن مهام لسانيات النص تتجلي في: الإحصاء للأدوات والروابط التي تسهم في التحليل، الوصف لشكل النص وموضوعاته: والوصف لهذه الأدوات والروابط، التحليل بإبراز دور هذه الروابط في تحقيق التماسك النصي مع الاهتمام بالسياق والتواصل"[1].

فمن أهم ملامح لسانيات النص دراسة الروابط مع التأكيد على ضرورة المزج بين المستويات اللغوية المختلفة وهذا إلى الاتساق الذي يتضح في تلك النظرة الكلية ،ومن هنا فلسانيات النص تتجاوز قواعد إنتاج الجملة إلى قواعد إنتاج النص خصوصا بعد إدراج الأبعاد الدلالية، وعلى هذا الأساس كان لزاما على أصحاب هذا الاتجاه أن يجدوا معنى النصية كمفهوم مقابل الأدبية، الذي قام بتحديده الشكلانيون الروس، وهذا ما تبناه روبرت ديبوجراند باعتباره "أن المعمل الأهم للسانيات النص هو دراسة مفهوم النصية "[2].

وقبل أن نغوص في هذا المفهوم ينبغي علينا تحديد مفهوم النص أولا.

جاء في لسان العرب أن "النص رفعك الشيء، نص الحديث ينصه نصا رفعه، كل ما أظهر فقد نص، وقال عمرو بن دينار : ما رأيت رجلا أنص للحديث من الزهري، أي أرفع وأسند له... ووضع على المنصة أي على غاية الفضيحة والشهرة والظهور، والمنصة ما تظهر عليه العروس لترى، ونص كل شيء منتهاه " فكل المعاني وغيرها تشترك في معنى واحد وهو الظهور والعلو والرفعة"[3].

---

[1] – صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي، دار قباء، القاهرة، مصر، ط1 ،2000م، ج:1،ص:56.

[2] – روبرت ديبوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان، ط1، 1998م، ص 65.

[3] – ابن منظور، لسان العرب، مادة نصص ج:6،ص:4441.

كما ارتبط النص بالقرآن والسنة وهو يدل على ما دل ظاهر لفظها عليه من أحكام [1] أما مفهوم النص في الدرس اللساني الحديث فقد اختلف نتيجة تباين الاهتمامات والتوجهات وتباين المناهج والآراء.

ففان ديك في محاولة تحديده لمفهوم النص نجده يربط تحليله بالأبعاد البنيوية والسياقية والثقافية أي بالجوانب الدلالية والتداولية والتركيبية، ولهذا عنون مؤلفه بالنص والسياق، أما هالداي ورقية حسن فيعتبران النص وحده دلالية بعبارة أخرى فهو ليس وحدة شكل بل وحدة معنى، وفي هذا يقولان " نحن نستطيع تحديد النص بطريقة مبسطة بالقول إنه اللغة الوظيفية، ونعني بالوظيفية؛ اللغة التي تؤدي بعض الوظائف في بعض السياقات ،والنص أساسا وحدة دلالية"[2].

أما جوليا كرستيفا فالنص عندها "جهاز عبر لساني يعيد توزيع نظام اللسان بواسطة بالربط بين كلام تواصلي يهدف إلى الإخبار المباشر وبين أنماط عديدة من الملفوظات السابقة عليه أو المتزامنة معه، فالنص إذن إنتاجية"[3].

أما رولان بارت فيعرف النص بقوله " النص نشاط وإنتاج....النص قوة متحولة، تتجاوز جميع الأجناس والمراتب المتعارف عليها، لتصبح واقعا نقيضا يقاوم الحدود وقواعد المعقول والمفهوم... إن النص مفتوح ينتجه القارئ في عملية مشاركة لا مجرد استهلاك، هذه المشاركة لا تتضمن قطيعة بين البنية والقراءة، وإنما تعني اندماجهما في عملية دلالية واحدة، فممارسة القراءة إسهام في التأليف"[4] أما فاينريش فيحدده بأنه "تكوين حتمي يحدد بعضه بعضا، إذ تستلزم عناصره بعضها بعضا لفهم

1- نفسه. ج:6،ص:4441.

2- هولداي ورقية حسن، اللغة، النص والسياق: نقلا عن صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي ج:1،ص:30.

3- كرستيفا جوليا: النص ،ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، المغرب ط2، 1997،ص:21.

4- بارت رولان: من العمل إلى النص، نقلا عن صلاح فضل. بلاغة الخطاب،عالم المعرفة. الكويت، 1992، ص: 214.

الكل" وأما ترابط الأجزاء وتماسكها يضيف فاينريش مصطلحين هامين هما "الوحدة الكلية" و"التماسك الدلالي ".

ولم يصبح مفهوم التماسك مقتصرا على الجانب النحوي بل تعداه إلى الجانبين الدلالي والتداولي، كما اعتبر أيضا نسيجا وحجابا جاهزا يكمن وراءه المعنى /الحقيقة مختفيا، وهو ما أدى بالبعض إلى التشديد في داخل النسيج على الفكرة التوليدية القائلة إن النص يتكون ويصنع نفسه من خلال تشابك مستمر، ليصنفوا نظرية النص ويعدوها علم نسيج العنكبوت لما تحويه من بنى وما تختزله من علاقات، ودون التعليق على كل هذه التعريفات، فإنه ينبغي أن نقر بأن هذا التعداد والتنوع مرجعه إلى طبيعة النظريات ومنطلقاتها. والاختلاف حول حدود النص إلى طبيعة الاهتمامات والتوجهات وتباين المناهج والآراء.

ويرتبط مفهوم النص بالخطاب، فلا تكاد تصادف أحدهما إلا وتجد الآخر رديفا له ولهذا سنتقصى معنى الخطاب أيضا. فالخطاب والمخاطبة مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا، وهما يتخاطبان"[2].

ونجد المعنى الاصطلاحي للخطاب يقترب كثيرا من الجانب اللغوي فيعرفه هاريس: بأنه "ملفوظ طويل أو متتالية من الجمل تكون مجموعة منغلقة يمكن من خلالها معاينة بنية سلسلة من العناصر بواسطة المنهجية التوزيعية وبشكل يجعلنا نظل في مجال لساني محض"[3]. ولعل هاريس بتعريفه هذا قد حاول أن يمدد تعريف الجملة.

أما بنفنيست فيعرف الخطاب بأنه "الملفوظ منظورا إليه من وجهة آليات وعمليات اشتغاله في التواصل، فالمقصود به الفعل الحيوي لإنتاج ملفوظ ما بواسطة متكلم معين في مقام معين...كل تلفظ يفترض متكلما ومستمعا وعند الأول هدف

---

[1]– محمد العبد، اللغة والإبداع الأدبي: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1987ص:36.

[2]– ابن منظور ،لسان العرب: مادة خطب ج:14ص: 1194.

[3]– مارشن وآخرون: التحليل اللغوي: نقلا عن :سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر ط5: 2005م،ص:17.

التأثير على الثاني بطريقة ما"[1] والملاحظ أن هذين التعريفين قد ربطا الخطاب بجانب المنطوق من اللغة . أما في مجال اللسانيات فإن الأمر يختلف إذ الخطاب وحدة أوسع من النص، ولكنها تبقى في علاقة مع ظروف الإنتاج ومن هنا فإن حدود التفرقة تكمن في قضية السياق من هذا المنظور.

وقد حاول ميشال آدم أن يحدد ذلك وفق المخطط الآتي

الخطاب =النص +ظروف الإنتاج

النص = الخطاب – ظروف الإنتاج

بيد أننا نجد أن علماء السرد كجيرار جينيت وتودوروف وفانريش لا يفرقون بين الخطاب وبين النص بل ويستعملونهما بالمعنى نفسه.

ومهما يكن من أمر، فإن أهم شيء هو تحديد النصية"وليس المقصود فقط أن نستخلص هنا المميزات الداخلية للنصوص، أي أن نستخلص البنى المختلفة التي تحتوي عليها ،ولكن أن نستخلص أيضا الميزات الخارجية لهذه النصوص أو بكلمات أخرى: أن نستخلص الشروط التي يخضع لها ظهورها في سياقات خاصة، كما تخضع لها وظائفها وتأثيراتها في هذه السياقات وسيكون المقصود أيضا هو تحديد العلاقات الموجودة بين النص والسياق"[2]. وهذا الأمر جعل فان ديك يقترح بعض المبادئ بغية التحليل النصي يمكن إجمالها فيما يلي:

-استعمال النصوص لا يكون إلا في سياق خاص، وفهمه وتحليله ينبغي أن يعتمد على ذلك السياق.

– النصوص تمتلك ضروبا مختلفة من الميزات التي تخلق مستويات متعددة، وينبغي دراسة كل مستوى من مستويات البنى المائزة لهذا المستوى، كما يمكن لكل مستوى أن يرتبط بمميزات سياقية معينة.

---

[1] – Benveniste :problème de linguistique générale,édi.gallimard,1966,p129-130.

[2] – فان ديك، النص بنياته ووظائفه، ص:138.

– هناك ضروب من السياق في أي نص، وينبغي التمييز بينها :فهناك سياق تداولي وسياق نفسي وسياق اجتماعي وثقافي...الخ. ومن هنا نصل إلى الحدود التي تم اعتمادها لتحديد النصية .وهي

1.التماسك "ويشير المصطلح إلى الأدوات الكلامية التي تسوس العلاقات المتبادلة بين التراكيب الضمن جملية أو بين الجمل، ولاسيما الاستبدالات التركيبية التي تحافظ على هوية المرجع"[1].

كما يعرف "بكونه مجموع الإمكانيات المتاحة في اللغة لجعل أجزاء النص متماسكة بعضها ببعض"[2]وهو بهذا المعنى يشير إلى مجموع العناصر التي يمكنها أن تسهم في البناء العام للنص حفاظا على بنية قارة ورؤية دالة ،وهذا المستوى يبحث الأدوات اللغوية الكفيلة بتحقيق الترابط بين عناصر النص، وهي أدوات شكلية بالخصوص تتجلى في العديد من أدوات تماسك النصوص كأدوات الربط، والتكرار والحذف والإحالة والاستبدال والاتساق المعجمي الخ .

2.الانسجام :يعرف بأنه "خاصية دلالية للخطاب تعتمد على فهم كل جملة مكونة للنص في علاقتها بما يفهم من الجمل الأخرى"، وهذا المستوى "لا يتعلق بمستوى التحقق اللساني، ولكنه يتعلق بالأحرى بتصور المتصورات التي تنظم العالم النصي بوصفه متتالية تتقدم نحو نهاية، ويضمن الانسجام المتتابع والاندماج التدريجي للمعاني حول موضوع الكلام"[3] فهو خلاف التماسك يرتبط بمنطق الأفكار والمفاهيم أي بالجانب المعنوي في النص وله من الأدوات والوسائل ما يكفل له تحقيق هذه الغاية كالعناصر المنطقية التي منها السببية والعموم والخصوص بالإضافة إلى السياق والمعرفة بالعالم.

---

[1]– تودوروف، النص، من كتاب العلاماتية وعلم النص، منذر عياشي ط1،1994م، ص: 132.

[2]– محمد الشاوش: أصول تحليل الخطاب، ج:1ص:124.

[3]– نفسه ،ص:133.

3.القصدية والقبول: إذ يعد كل نص بنية قصدية، وهو بوصفه كذلك يخضع لمعايير من القبول، فالأفعال القولية لا تمثل وقائع لسانية ولكن تداولية "[1] وهذا المفهوم مرتبط بغاية كل من الباحث والمتلقي، فالأول في إطار التأثير والثاني في إطار التفاعل.

4.الإعلامية: والمقصود الشحنات الإخبارية التي يمكن أن يحملها كل نص، وهذا يختلف حسب طبيعة النصوص والغاية منها.

5.المقام: ويعتبر أهم شيء في تحديد معنى النص، إذ هو الذي يجعل نصا ما مرتبطا بموقف ما يمكنه فهمه من خلال ذلك الموقف،ويعد السياق أهم شيء في فهم كنه النصوص، ولا غرو أن نجد له نظرية خاصة في علم الدلالة تعرف بـ"النظرية السياقية"ولهذا يرى فيرث"أن المعنى لا ينكشف إلا في سياقات مختلفة؛ سواء أكانت هذه السياقات لغوية أم اجتماعية...فمعظم الوحدات الدلالية تقع في مجاورة وحدات أخرى، وأن معاني هذه الوحدات لا يمكن وصفها أو تحديدها إلا بملاحظة الوحدات الأخرى التي تقع مجاورة لها"[2]وينقسم السياق عموما إلى نوعين: سياق لغوي يمكن تلمس خيوطه من خلال النسيج العام للنص، وسياق حالي يهتم بالظروف الملابسة للعملية النصية في حد ذاتها.

6.التناص: وهو يتضمن العلاقات بين النصوص، فالنصوص السابقة تشكل خبرة لتكوين النصوص اللاحقة، وهذا في إطار التراكم المعرفي الذي يسمح بتماهي النصوص في بعضها البعض.

ولو حاولنا إعادة تقسيم هذه المبادئ وفق معيار آخر لوجدناها تنقسم ثلاثة أقسام:

الأول يتعلق بالدراسة المحايثة للنص ؛ونجد فيه كلا من التماسك والانسجام.

---

[1] – تودوروف، النص، ص:134.

[2] – أحمد مختار عمر، علم الدلالة، عالم الكتب،مصر،ط2 ،1988م،ص:69.

الثاني يتعلق بطرفي العملية سواء كان الباث أو المتلقي ونجد هنا القصدية والقبول.

الثالث يتمحور حول السياق بأشكاله المختلفة وهنا نجد كلا من الإعلامية، المقام، والقصدية.

وعليه فإن الاعتماد على هذه المقاربة في إعادة بعث الدرس البلاغي، لايرقى إلى الاستحواذ على جميع عناصر الظاهرة البلاغية في أبعادها المختلفة، وإنما ينبغي الاعتماد عليه كأرضية منهجية ومفاهيمية خصوصا وأنها حررت التحليل اللغوي من أغلال الجملة وفتحت له آفاقا فوق جملية وعبر تخصصية (interdisciplinaire).

الخـاتمة

لقد بدا واضحا من خلال رصد أهم ملامح الظاهرة البلاغية في شقيها العربي والغربي أنه قد تجاذبتها العديد من الأطراف، وتنازعتها الكثير من الرؤى والطروحات، وهذا أمر مسلم عقلا ومتقبل علما، ولا مناص من الإقرار به بل والاعتماد عليه، خصوصا إذا حاولنا أن نبني مقاربة فكرية ،المرونة ميزتها والشمولية خصوصيتها، تضرب بجذورها في أعماق التراث؛ تجول في بساتينه وتستنشق من رياحينه، وترفع عنقها في أعالي الحداثة فتطل على شرفات الفكر.

إن المقاربة التي نطمح إليها هي تلك التي تسمح لنا ببناء نموذج قادر على رصد جميع ملامح الدرس البلاغي وفق منظور يجمع في طياته روح التراث ومتطلبات الحداثة ،وهذا الأمر لا يمكنه أن يتأتى إلا إذا استجاب للمعطيات التالية:

- الإفادة من كل ما تم ذكره آنفا حول ميزات الظاهرة البلاغية وخصوصياتها عند كل المهتمين بها، دون إقصاء أو تهميش.

- الاعتماد على مختلف السياقات التي أسهمت في كل ما أنتجه الدرس البلاغي؛ إذ السياق هو الكفيل الوحيد الذي يسمح بالحفاظ على الخصوصية التي تحملها كل فكرة من أفكاره.

وبناء على هذا، فإنه من الضروري تجاوز التقسيم البلاغي ذي الأبعاد الثلاثة إلى تقريعات أخرى، كون التقسيم القديم قد أهمل الخصوصية التي تمثل روح البلاغة، وأغلق باب الاجتهاد باعتماده على أحكام صارمة وقواعد جافة، قتلت في البلاغة روحها. وفي فنون القول ميزتها وخصوصيتها، فأي خطاب يهدف إلى إحداث عملية تفاعلية يكون أطرافها غير مقيدين بمبادئ سابقة وقواعد لاحقة.

إن البلاغة اليونانية قد نشأت في بيئة ديمقراطية؛ ولهذا كان صلب اهتمامها هو الإقناع وحشد الجماهير من أجل الانتصار لشخص دون آخر، ولهذا فلا غرو أن يؤسس بلاغيوهم لمبادئ وأسس هذا الإقناع محاولين الإجابة على السؤال الآتي؟ كيف يمكن للخطيب أن يكون بليغا.

أما البلاغة العربية فقد انطلقت من فكرة إعجاز القرآن في بادئ أمرها، محاولة إبراز ملامح هذا الإعجاز، ولهذا فإن أهم فرق بين البلاغتين العربية والغربية يكمن في الأسس التي انطلق منها كل منهما، فأرسطو مثلا يؤسس لبلاغة الكلام ،أما عبد القاهر الجرجاني فيؤسس لبلاغة الصمت.

ومهما يكن من أمر، فإن إعادة بعث الدرس البلاغي تكمن في إضافة الجانب الإعجازي والإفادة من كل ما توصل إليه الدرس البلاغي الحديث؛ وهو ما ينبغي أن تعمد إليه كل دراسة وتتكئ عليه في إعادة بناء نموذجها ،وهو ما نراه الرهان الوحيد لدرسنا البلاغي حتى يجد مكانا له في ضوء الانفجار في الدرس اللغوي الحديث.